

# حكمة الإشراق وجدلية الأنساق\*

شفيق جرادي

## ملخص البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحويل الفيلسوف العارف في شخصية فلسفية تدرس لذاتها، إلى سؤال فلسطي يحاول أن يجيب على استئلة محاينة، تلح على عقل الإنسان في الظروف الراهنة.

من هنا، قام الباحث بتقسيم بحثه إلى لمحات، الأولى: بحثت في جدلية "فلسفة النور"، وحاول أن ينفي عنها شبهة الثنوية ويربطها مع التوحيد الإسلامي.

أما الثانية، فتعلق بمصدر الفكرة والتسمية والأطروحة التي قدمها السهروردي، وتوصل في نهايتها إلى

\* بحث مقدم إلى مؤتمر شهاب الدين السهروردي الذي انعقد في دمشق بتاريخ 31 آب / 2002.

أن إشرافية السهروردي إبداع في الفكرة، والتحام مع  
المحيط، وتجاوز نحو المصدر مباشرة في عشق النور  
القاهر.

هذا وختم الباحث بحثه بالحديث عن المنهج، الذي  
يقسم عنده إلى ذوقي وبرهاني، ولكن الحكمة الذوقية  
أساسها، وما جدلية علاقتها مع النسق البرهани إلا من باب  
لحوق العارض بالجومر على المستوى المعرفي.

من غربة جاء روحًا مشرقاً، مكتسيًا ثوب جلال، تجلّى عليه وفيه ذو الجلال، مستكناً بجمال ضاقت به الجهة الغربية من هذا الوجود الغوار، بالكثرة والظلمة الظلمانية... حتى خنقته وحيداً.

بالبرهان والعرفان، بالدليل الأدائي والذوق الحدسي، بجادل الظلمة والنور، بحركة الغروب والشروق، بلغة الرمز والتطابق...

كانت رحلة العروج عند شيخنا الشهابي نحو مقام قاب قوسين أو... وانتهى الكلام... فما بعد الـ "أو..." كلام إلا للواحد القهار... وما صاحب السفر هناك إلا شهيد صارت فيه الشهادة شهوداً... والشهدود إحاطة... والإحاطة نوراً... والنور حياة... والحياة رسالة... والرسالة تكاماً وكاماً بين شعوب من المعارف، وقبائل من الخلق خلقها الله لتعتارف...

والمعرفة انقطاع عن أصر الجسد وقيد سلطة القهر، وشهوة الجوف، وذلة الموقف بين الناس... بل هي شهادة "شهاب الدين السهروري"، الرمز المقتول في حلب بسيف الجهة الغربية لثلاثي الجهل والضفينة والسلطان... ووداع الجهة الغربية كان موتاً بلا طعام ولا نوم ولا ماء.

بل كان قصداً لحياة لا إصر فيها ولا دموع، ولا حقد ولا وهن...  
فمن انتصر؟ الحلاج أم من صلبه؟ والحسين أم من قتلوه؟ وعلى أم من جهلوه؟ ومحمد أم من ناصبوه وإتهموه؟.  
انتصر إبراهيم في حجته أم النمرود في سطوطه؟ انتصر موسى وعيسى أم فرعون وقيصر؟.

أسئلة وجدل، وانساق ووحدة إنسان، تبحث بين الركام عن حضارة لهذا الإنسان الجائي من الغربية، والباحث عن حوار بين الأنساق والأديان والثقافات والحضارات وبين الإنسان نفسه، والدين وحقيقة، والبرهان وإبداع الذات فيه ... ومن كان هذا شأنه، فسيبقى مورداً للتباس وسؤال ويبحث عن شهاب النور والضوء، في غمرة فضاء العتمة.

والاليوم، إذا كانت الفلسفة قد تحولت إلى سؤال نهجه النقد، ودينه التفحص والتشكك والتقصي، عبر سياقات معرفية - تاريخية.. تستجلّي تطور المصطلح والفهم والمعنى، ساعية لإعادة ترميم ما بلاء النسيان، وبناء ما فككته أدوات الحرفة ... مما المانع أن نعمل على التعاطي مع العارف الفيلسوف "السهروردي" كموضوع لسؤال فلسطي نقيمه بلغة اليوم؟ ساعين للبحث بمزاج خاص يستفيد - قدر الإمكان - ولا يركن ...

ولذلك، ففي منهج التقسيم لمفاصل البحث، قد نخرق حركة التتابع الزمانى على نهج الامتداد المتعارف، نحو من الامتداد الزمني الألصق بالفكرة منه بالتوقيت ...

فلطالما كانت الفكرة في صفاتها ونضجها هي أقرب نحو منطلقتها من مفاصل ومتطلبات، قد تكون أقرب زمنياً منها إلى المنطلق، إلا أنها أكثر بلوغاً نحو حقيقة المعنى في الفهم والتعبير.

ولعل خير شاهد على ما نذهب إليه شيخنا "السهروردي" في مستوى ونوعية تعاطيه وفهمه، وعمق تعبيره واستيعابه لحكمة الإشراق.. التي أعادها من

حيث المصدر إلى معلم الحكماء "هرمس"، المسمى عند المسلمين بالنبي الحكيم «إدريس»، والذي تابعته نفوس وعقول متألهة كان آخر حلقاتها، حسب ما ذهب إليه "السهروردي" "إمام الحكمة ورئيسها أفلاطون، صاحب الأيدي والنور"<sup>(1)</sup>. وهي العبارة التي شرحها في كتاب "شرح حكمة الإشراق" بالقول: "إن الإمام في الحكم هو القدوة... والأيدي هي النعم... والبصائر وهو شدة النور الباطن النفسي الذي هو السبب في إدراك الحقائق، وهو معنى النور"<sup>(2)</sup>. "فأفلاطون"، مع ما يفصل بينه وبين "هرمس - إدريس" هو قدوة الحكماء... وللسبب نفسه ذهب الشهريوري إلى إن قمة الإشراق إنما كان يتمثل بشيخ الإشراق "شهاب الدين السهروردي"...

إذ "لم يزل طريق الحكمة مسدوداً مضطرباً حتى طلع كوكب السعادة، وظهر صبح الحكم من أفق اليقين، وأشرقت أنوار الحقائق من محل الأعلى، بظهور مولانا سلطان الحقيقة ومقدى الطريقة، مظهر الدقائق وفائز الحقائق، معدن الحكمة وصاحب الهمة، المؤيد بالملائكة والمنخرط في سلك الجبروت، بقية السلف وسيد فضلاء الخلف، وأفضل المتقدمين والمتاخرين، لب الفلسفه والحكماء المتألهين، شهاب الملة والحق والدين، "السهروردي" قدس الله نفسه وروح رمسه.. وشرع في إصلاح ما أفسدوا، وإظهار ما طمسه الأدوار، وتفصيل ما أجملوا، وشرح ما أشاروا إليه ورمزوا، وحل ما انغلق وأشكّل، وأحيا ما مات ودثر"<sup>(3)</sup>.

فـ"السهروردي" المحيي لما اندر، وـ"أفلاطون" القدوة للسائلين على درب الحكمة، كانا مع ما يفصل بينهما، أعظم من اهلته "إشرافات أنوار الحقائق من محل الأعلى"، المتعالية على حدود الزمن والآن لأخذ هذا الدور العظيم ... ووجهتنا أعلى ضوء ذلك، سوف تأخذ بعدها من الجدل "الجوانبي" للفكرة تارة، وبعدا من جدل المفهوم والمفهوم، والصيغة والصيغة تارة أخرى.. ذلك ان منطق الحوار والجدل هنا، قد يكون بين نسق البرهان ونسق العرفان، او بين نسق الخبر ونسق الإنشاء ...

لتتوحد مظاهر الأنساق عند ذات تتفرد بالقدرة على المؤالفه والتنظيم والإبداع، ويحصل التعبير الحكمي عند فريد الدهر "السهروردي" بأدوات من التواصل الرمزي، يتتجاوز معايير الخطاب إلى الأصل المنشىء... "كلمات الأولين مرمرة وما رد عليهم - وان كان متوجهاً إلى ظاهر أقوابهم - لم يتوجه إلى مقاصدهم، فلا رد على الرمز... وعلى هذا يبنت قاعدة الإشراق"<sup>(4)</sup>. هذا الكلام "للسهروردي" يعلق عليه شارحه، بأن ما فعله أرسطو بالرد على أستاده، إنما كان ظاهر الكلام لا باطنه ومقاصده...

وإذا كان في الردود ما يفضي إلى المضامين لتألف أنساق الظاهر البخي مع أنساق المقاصد الذوقية، وتؤلف بين أبعاد الخبرية والإنسانية من الجمل ... فيكون بين الوجود والعقل إخاءً ونورًا وشروع، ويكون الكل على طريق الحكمة، بجدليات الحكمة التي تؤلف بين الغيب والشهادة في الوجود، وبين

البرهان العقلي والذوق الكشفي - الشهودي في المعرفة، ولن يكون عنوان ذلك كله "الإشراق" تارة أو "الحكمة المتعالية" أخرى...

وليخرج الفكر والعقل الإسلامي من مأزق الاستلاب والاختزال المعرفي الذي سببه مرة العقلانية الاعتزالية التي تمظهرت في يقظتها الأخيرة بالأندلس عند "ابن رشد"، والتي كانت تفصل منهجاً بين طريقي العقل والنص لمصلحة الأول... ومرة أخرى من مأزق الاتجاه الكلامي الذي أعلن انتصاره عبر "تهافت الفلسفه" على مشائيه "الكندي" و"الفارابي" و"ابن سينا"، ليبنى صرح التعبدية على حساب الاجتهد الإبداعي الأصيل والمبتجع...

فبعد "السهروردي" ومعه كانت بداية تزخيم النص بانطلاق البرهان وروحية الإشراق والوجد والذوق والكشف... وكانت بداية التأسيس للخروج من الفلسفة الإسلامية، نحو فلسفة الإسلام بنحو من تضافر اللغة والبرهان والعرفان والقرآن والحديث، بل والمأثور التراخي للأئمّة والحكماء، في قدسيّة أقوالهم وأدعیتهم والزيارات...

لتتواصل تلك الفلسفة - الحكمة للإسلام في فروع العلوم الإسلامية، كالتفسير والكلام الجديد عند الطوسي، والأخلاق المتعالية عند أصحاب السير والسلوك، وفي حركة أصول الفقه والفقه ونظرية البناء التدبيري للعقل العملي... والتي نشهد اليوم بعضاً من حلقاتها...

كل هذا، يحدونا لدراسة "جدلية الانساق" وكيف أنتجت عند "السهروردي" إشرافته العظيمة "حكمة الإشراق"، عبر إيراد لمحات تجمع وتوالف بين حكمته، والأفق الفكري الذي توفر عليه...

### اللمحة الأولى:

وهي السمة التي أكسبها "السهروردي" حكمته، والتي اصطلح عليها بـ"فلسفة النور"، إذ تقوم على جدلية "النور والظلمام". ولقد عمل حكيمنا على الإفادة من هذين المصطلحين المعنيين بكل ما يحملانه من طاقة دلالية، وإشارات رمزية ومقاصد... إلا أن جدل نسقي النور والظلمة حمل - كما هو معلوم - ثنائية تذكر بالثنوية، وهي لا تنسجم مع طبيعة المنطلق التوحيدى الذى أسس عليه الحكيم المسلم فلسفته أو حكمته.

لذا اعتبر د. "أبو ريان" "أننا نجد من ناحية أخرى أن "السهروردي" نفسه لم يقبل ثنائية النور والظلمام بالمعنى الفارسي القديم<sup>(5)</sup>. مع ذلك، فلقد عرف شراح حكمة الإشراق النور بالوجود، والظلمة باللاوجود أو العتمة، بما هي نفي للوجود<sup>(6)</sup>... بل حتى ان "أبا ريان" نفسه، في الوقت الذى يقر فيه للفظين بمدلول وجودي، فهو يصرح قائلاً: "فالنور هو الوجود، والظلمام اللاوجود، فاما النور فلا يخضع للتعریف المنطقي، إذ هو اظهر من ان يعرف، والظلمام عدم النور<sup>(7)</sup>. ومثل هذا الكلام فيه ما فيه من وهن، إذ كيف صح عند "أبي ريان" تعریف الظلمام بعدم النور، والشيء لا يعرف بما يخالفه الا بالتعريف الاسمي، وهذا ما يصدق حتى

على النور نفسه... ثم ما سر هذا الاضطراب في اعتبار الظلمة كما النور أمراً وجودياً تارة، واعتبار الظلمة أمراً عدمياً تارة أخرى؟. فإن كان السر يكمن باللحاظ والحيثية، فهذا ما يجب تبيانه، وهو أمر لم يحصل. بل كان كل همه إخراج المصدر الفارسي كصاحب خصوصية، والذهب إلى أن ثنائية المعنى حق مشاع عند أفكار كل الأمم بما فيها اليونان...

ونحن خارج إطار مبحث المصدر، يلفتنا أن إعطاء الظلمة معنى مستقلأً عن النور، هو إضفاء شرعى لكل فكرة تقول بمصدرين وجوديين على المستوى الأنطولوجي، بل ولكل فكرة خارجة عن مبدأ عدم التناقض في الإطار المعرفي... والاعتماد على هذه الاستقلالية في المعنى، سيوقعنا في معركة المطلقات المتقابلة، ليصبح الشر مطلقاً كما الخير، والسلب مطلقاً كما الإيجاب، والإطلاق فيه إقفال لحركة أي معطى أو واقع أو معنى؛ وبالتالي لن يكون التجادل حينها مبدعاً أو مشرقاً، بل هو جدل الاختزال والاحتراز والتسلالب... **هلو كان فيهما آلة إلا الله لفسد تاھ**<sup>(8)</sup>؛ بل ويسبب علاقة القيم بالنظام، فإن مثل هذه الثنائية تقضي إلى صراع بين الإنسان وما حوله، والإنسان مع الإنسان... إنها تؤسس لصراع وجودي وقيمي متسالب، لا يقبل التحاور والتعايش والتكييف بين الثقافات والأمم والحضارات. ثم فضلاً عن ذلك كله، فإن الحكيم "السهروردي" يصرح ببعد عن هذا المعنى الذي يوسمه بتسمية الكفر، إذ يقول: "قاعدة النور... وهي ليست قاعدة كفرة المجروس، وإلحاد ماني، وما يفضي إلى الشرك بالله تعالى...."<sup>(9)</sup>، وليفتح أفقاً لمعنى آخر يقوم على وحدة المصدر الإشraqي الذي منه يكون كل شيء استقلالاً، وهو

مضمون معنى "الواجب" الفلسفـي... وكل ما يصدر منه مما هو سواه مرتبط وجودياً به مفترـقـاً إلـيـهـ، وهو ما اصطـلـعـ عـلـيـهـ بـالـإـمـكـانـ (ـفـيـ الـفـلـسـفـةـ). والإمكان الذاتي هنا استـوـاءـ بـيـنـ الـفـعـلـيـةـ وـالـلـافـعـلـيـةـ، وبـيـماـ هوـ سـلـبـ لـضـرـورـتـيـ الـوجـوبـ وـالـاسـتـحـالـةـ، إنـماـ يـأـخـذـ، معـ ذـلـكـ، ضـرـورـتـهـ وـوـجـوـبـهـ وـفـعـلـيـتـهـ وـتـحـقـقـهـ منـ مـصـدـرـ الـوـجـودـ الـوـاجـبيـ، أوـ بـتـعـبـيرـ "ـالـسـهـرـوـرـدـيـ": نـورـ الـأـنـوـارـ...ـ منـ هـنـاـ اـعـتـبـرـ أـنـ الـظـلـالـ وـالـأـشـبـاحـ -ـ الـعـتـمـةـ،ـ هيـ أـنـوـاعـ الـحـقـائـقـ الـأـصـلـيـةـ،ـ أيـ الـعـقـولـ الـنـورـانـيـةـ الـمـغـارـقـةـ وـالـمـجـرـدـةـ<sup>(10)</sup>ـ.ـ وـعـبـرـ هـذـاـ التـيـيـزـ وـالـرـبـطـ،ـ يـبـنـيـ نـظـامـهـ فـيـ الرـفـيـةـ الـكـوـنـيـةـ،ـ فـهـذـهـ الـأـنـوـارـ بـقـاهـرـيـتـهاـ الرـحـيمـةـ تـبـدـعـ...ـ وـالـظـلـالـ بـحـبـهاـ وـعـشـقـهاـ تـتـجـهـ،ـ وـتـنـوـجـدـ وـتـنـتـرـعـ بـكـثـرـتـهاـ المـتـحـدـةـ مـعـ أـصـلـهاـ اـتـحـادـ الـمـتـحـدـ مـعـ ذـاـتـهـ،ـ وـالـأـخـذـ لـمـعـنـاهـ وـهـوـيـتـهـ...ـ وـهـكـذـاـ تـكـوـنـ حـكـمـةـ الـإـشـرـاقـ حـرـكـةـ تـتـنـظـمـ عـبـرـ جـدـلـيـةـ الـأـنـسـاقـ،ـ هـنـدـسـةـ تـتـشـابـلـكـ فـيـ بـنـاءـ،ـ وـأـبـنـيـةـ مـحـكـمـةـ مـنـ الصـيـرـوـرـةـ وـالـمـثـالـ وـالـفـكـرـةـ الـعـارـفـةـ...ـ مـنـ دـوـنـ أـنـ "ـتـنـطـقـ عـلـيـهـ صـفـتـاـ الـاتـصالـ وـالـانـفـصالـ لـامـتـنـاعـ وـجـوـدـ الـحـيـزـ"<sup>(11)</sup>ـ.

وـمـنـ خـلـالـ هـذـهـ الـجـدـلـيـةـ وـعـلـىـ أـرـضـيـتـهـ،ـ يـسـلـكـ الإـنـسـانـ سـبـلـ التـكـاملـ فـيـ وـجـوـدـ الرـتـبـيـ،ـ وـالـمـعـرـفـةـ فـيـ تـأـلـهـ وـيـقـيـنـهـ،ـ ليـتـمـاثـلـ خـلـقـ المـصـدـرـ لـلـتـحـقـيقـ فـيـ المـصـدـرـ وـادـرـاجـهـ،ـ وـلـيـصـلـ إـلـىـ مـاـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ اـسـمـ "ـالـطـبـيـعـةـ الـكـامـلـةـ"،ـ أـوـ "ـالـإـنـسـانـ الـكـامـلـ"ـ أـوـ "ـقـطـبـ الـأـقطـابـ"ـ،ـ أـوـ "ـصـاحـبـ الـإـمـامـ وـالـحـجـةـ الـذـيـ لـاـ يـخـلـوـ مـنـ زـمـانـ أـبـداـ"ـ...

وـعـلـىـ ذـلـكـ،ـ فـإـنـ حـكـمـةـ الـإـشـرـاقـ وـالـأـنـوـارـ تـتـمـتـعـ بـمـيـزـتـيـنـ:

الأولى: مضمونية، تسع وتشمل مناحي الوجود الأنطولوجي ونظام القيم، وسلوكية الإنسان، فهي بذلك تشكل فلسفة الرؤية الكونية الإسلامية.

الثاني: شكلية، استطاع فيها صاحبها إعطاء تسمية وعنوان لفلسفه؛ بحيث صارت تلك كأنما هي اسم علم خاص بها...

ولا يخفى أهمية هاتين الميزتين، وإن القول بأن الأنظومة الكاملة هي مؤامرة تشويه معرفي، تبقى مورداً للبحث المفتوح؛ إذ لطالما عملت يد التشريح والتفسير على أسر الفكرة في جزئياتها، معملة قياس التمثيل الظاهري لربطها بما لا ينسجم معها، مما أدى إلى إعطاء أحکام مبتورة وتعسفية في الكثير من الأحيان. كما لطالما تحولت مشاريع الانظومات، إلى قراءات تقليدية خالية من التجديد والإبداع.

## المحة الثانية:

وتعلق بمصدر الفكرة والتسمية والأطروحة التي قدمها "السهروردي"، والتي انقسم فيها الناس إلى آراء واتجاهات.

أ - يذهب "قطب الدين الشيرازي"، في مقدمة شرحه لحكمة الإشراق إلى أنها تعود بإشرافيتها واعتماد الذوق الكشفي إلى فارس القديمة، في حين أعادها بعضهم إلى الاتجاهات الفارسية التي كانت تسود في عهد "السهروردي" وتلقاها مشافهة. وقد مال إلى هذه الوجهة "هنري كوربان" و"حسين نصر"، وإن أشارا إلى أن هذه النسبة التي فيها انتفاء

جغرافي لبلاد الشرق، هي مع ذلك ت نحو نحو مشرقية معرفية، هي مشرق الأنوار، وهي أيضاً فكرة سادت في بلاد الشرق.

وإن كان السيد "حسين نصر"، في مورد آخر في بحثه الوارد في الكتاب التذكاري حول "السهروردي" يقول: "الواقع ان "السهروردي" يمثل نقطة التقائه زرادشت من جانب وأفلاطون من الجانب الآخر...".<sup>(12)</sup>

بـ- محاولات من عمل على نفي الجانب الجغرافي للتسمية، وإعادة مصدرها ومضمونها إلى التراث اليوناني الأفلاطوني والأفلوطيني الذي تمثل "بأفلاطون"، كما بالمدارس الفلسفية الإسلامية عند "الفارابي"، و"ابن سينا"، و"أبي البركات البغدادي". وهذا ما اشتغل عليه الدكتور "أبو ريان" عند كل محاولة لقراءة حكمة "السهروردي" الإشراقية، التي رأى فيها استكمالاً لما كان قد أرسى أسسه "ابن سينا" من تأثيرات الفلسفة اليونانية بالعالم الإسلامي... كما أوغل الدكتور "حسن حنفي" نفسه بالاتجاه، ليعتبر أن أي محاولة لأنخذ المصادر الفارسية في حكمه الإشراق إنما تأتي من "المنهج الذي يقوم على الأثر والتأثير، وعلى تفريغ الظاهرة المدرستة من مضمونها الأصيل، وإرجاعها إلى ظواهر سابقة عليها... إما عن حسن نية... وإما عن سوء نية، لتفريغ الحضارة الإسلامية من مضمونها، وإرجاع الوحي والنبوة إلى مصادر تاريخية محضة في ديانات الشرق القديم. وتقوم حجج هذه النظرية على: الجنسية، المولد، اللغة، المنطقة الحضارية والفرقة

الدينية<sup>(13)</sup>. إلا أن "حنفي" لا يرى في حكمة الإشراق إلا مسعىً للفكر الإسلامي، للإجابة عن إشكالية منهجية تتبعي التأليف بين المتناقضات. أو وهناك من يعتبر أن المسألة هي فهم إسلامي للعلاقة بين الأفهام المختلفة بعناوينها الجغرافية والقومية، والمتحدة بقدرة ذوقها الإشرافي وعقلها البرهاني.

بـ- ونحن نذهب للقول: إن "السهروردي" لم يعمل قوميته ولا نسبته الجغرافية أو المذهبية في فلسفته، بل استفاد من كون الإسلام قد أقر بكلنبي جاء قبل النبي محمد ﷺ وأن الله في كتابه العزيز حدث نبيه عن الأنبياء بأن ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْنَاهُ﴾<sup>(14)</sup> ... وهذا يفتح المجال واسعاً أمام إمكانية اعتبار جملة من الحكماء أنبياء بالأساس. مما المانع أن يكون "زرادشت" نبياً؟ كما "أفلاطون" نبياً؟ وإذا كان مصدر الإلهام عند كلنبي واحداً، إذن فلا إشكال في التأليف بين ما يظهر عليه الاختلاف، فوحدة المصدر تعني وحدة الحقيقة. والجدل بين أنساق المظاهر الفكرية والعقيدية الناشئة من مقتضيات الزمان والمكان، لا تعني بالضرورة وقوع الاختلاف على مستوى المقاصد والمعاني والمضامين، ووحدة جدل الأنساق والتعدديات قادر على الكشف عن موارد الوحدة، عبر ممارسة النقد في هذا الشأن لكشف الجوهر من العرض بمنهجية تستعرض النص، وتستشرف إشارات فيض المعنى من واهب المعنى.

وهذا لا يعني على الإطلاق خروجاً نهائياً من قيود الموضع الجغرافي، أو سطوة الثقافة السائدة باصطلاحاتها ولغتها وحکاياتها... إلا أنه لا يعني ضرورة عدم الخضوع لها، وإن التزمنا رعايتها ومراعاتها، سواء أكانت قبليات تفرض نفسها، أم خيارات تتجه إليها.

إشرافية "السهروردي" إبداع في الفكر، والتحام مع المحيط، وتجاوز نحو المصدر و مباشرة في عشق النور الظاهر... ومصدر الفيض والإلهام الإلهي على الوجود والمعارف والادراكات.

### **اللحمة الثالثة. في المنعم:**

لقد قدم بعضهم وصفاً لطبيعة حركة المنهج الإشرافي بالقول: إن "الإشرافية مذهب حركي (динاميكي) عقلي، تتظمّمه خطوط هندسية لا متناهية تتشابك في بناء محكم. وهو يقترب إلى حد كبير من المذاهب الحيوية التي تعتنق التطور الإبداعي من حيث خصوصية الوجود الروحية، وتدفق الحيوية العقلية، فالوحدات الوجودية متشابكة تتبادل فيما بينها إنارة روحية خصبة بحسب مراتبها"<sup>(15)</sup>.

وهنا يصبح الإشراق مذهبًا عقليًا يكشف عن تشابك في العلاقة الجدلية، بين وحدات الوجود النورانية.

فواقع المذهب الإشرافي هو الوجود، أي النور، أي الروحية التي تنضح بها وحدات الموجودات، بينما المعرفة إدراك عقلي متبع لتلك الوحدات. وتتمكن

المشكلة في مثل هذه القراءة في عدم القدرة على الخروج من أفق المشائبة المختلطة بتلاوين أفلوطينية، إسقاط هذا النسق على حكمة الإشراق... فضلاً عن مشكلة ما زالت مستديمة، وهي عدم القدرة على اعتبار الإشراق منهجاً في التحليل يقوم على بعد روحي – شعوري، ذلك أن من غير المتصور، خاصة في عالم "التشيء" لكل معنى، إمكانية وجود منهج، وفي الوقت نفسه، يقوم على بعد أقرب للخبرة الروحية منه للأشكال الذهنية...

علماً بأننا لو غمضنا النظر عن كل ما ورد من ملاحظات، فلا نستطيع إلا أن نرى في التحليل تجاوزاً لوحدة العلاقة بين ما هو في الأعيان وما هو في الأذهان عند "السهروردي"... فجدلية الأنساق عنده لا تعني ثنائية الذات والموضوع التي هي سمة الفلسفة الحديثة، والطريق الشاق الطويل التي سعت، وما زالت، لسلوكه وتبيان معالمه واتجاهاته ومفترقاته.

هذا وإن كنا نعتقد أن المجال هنا لا يتسع للاستفاضة بالكلام عما يخص المنهج. لكن من المفيد التفريق بين المنهج والنهج، إذ هناك فارق، بين سبيل الفكرة وطريقها، وسمتها الخاصة، **«لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً»**<sup>(16)</sup>، وبين الأدوات والوسائل التي نستخدمها، لنضيء ببعضًا من معالم الطريق أو نكشف عنها، والخلط بين الاثنين لطالما أفضى إلى مغالطات وخلافات.

وفي اعتقادنا، أن المنهج "النهج" عند "السهروردي" ينطلق من الحقل المعرفي الذي يعاشه ويشتغل عليه، وهو الدين.

وبما أن الدين وحي، فالمعرفة المنشقة عنه لا بد من أن تكون إشراقاً...

وبيما أن الدين عند الله منذ بداية الخليقة هو الإسلام، فكل نبي حكيم معتمد ومرجع في حكمة الإشراق...

وبيما أن الدين كشف تام ظهر بالنص المعصوم، فلا بد من أن نعود إلى ذلك الكشف التام كمعيار يميز الصحيح من الفاسد... لذا كان نراه يستند إلى الآيات القرآنية بمستوى لم يتوافر عليه أحد قبله من الحكماء.

بل من هنا نراه قد عمد "إلى إظهار الوحدة بين التفكير العقلي والحقيقة القرآنية..."<sup>(17)</sup>، وحدة جعلت الدكتور "حسين نصر" يعتقد أنها معيار يمكن لنا على ضوئه أن نميز "أصالة ما ينسب إلى السهوروبي من آثار"<sup>(18)</sup>. وبما أن الدين نظر وعمل إذ "من يتق الله يعلم الله" و"العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء" و"العلم يزكي بالعمل"، فلا بد من الارتكاب بل الاجتهاد في الارتكاب النظري والعملي عبر البرهان والسلوك، والعرفان للوصول إلى الحقيقة ودركتها، سواء في التأمل أو التعليم أو التعلم، حتى لكتاب كمثل كتاب "حكمة الإشراق"<sup>(19)</sup>.

ثم أخيراً، بما أن الدين فطرة، والفطرة نور وجود قام في كل وجود إنساني، فلا غرو أن تتألف المختلافات، وتتشابك الوحدات، وتتعارف القوميات، وتتحدد المتعارضات بين الأنساق في وحدة الفطرة، كتجذر لحقيقة وحدة المصدر، وهي التي يسميها في "حكمة الإشراق" بـ"الخميرية الأزلية" عندما يقول: "وأودعنا علم الحقيقة كتابنا المسمى بـ"حكمة الإشراق، أحينا فيه الحكمة العتيقة التي ما زال أئمة الهند وفارس وبابل ومصر وقدماء اليونان يدورون عليها، ويستخرجون منها حكمتهم، وهي الخميرية الأزلية"<sup>(20)</sup>.

فكمما أن الحقيقة الكونية والوجودية والدينية كمنت في الإسلام، فعلى حكمة الإشراق أن تقوم بإيجاد ما أسماه شيخنا "السهروردي" بـ"علم الحقيقة" المعبر عنها بحكمة الإشراق، ساعياً لتضمين العلم ما يتسانخ مع الحقل الذي عليه يقيم بناءه، ومنه يستكشف إشرافاته وأنواره.

إلا أن المنهج «النهج» يقتضي أدواتاً وسبلاً بحثية تعالجه وتكتشف عنه. وهنا يأتي الحديث عن تقسيم العلوم إلى حقيقة ثابتة تتبع المعلوم الثابت، واعتبارية بحسب الموضعية والفرضية في اللحوق بالثوابت... كما يأتي الكلام عن الفلسفة والميتافيزيقا لا كعلم مستقل يقصد لذاته، بل كأداة معرفية لها وظيفة طريقية للوصول إلى المقصد والعقل كما والاشغال فيه...

كما تأتي المكاشفة والمشاهدة والارتياض والعرفان سبلًا متقدمة نحو ذي المقدمة والمقصد الأسبق...

فمن ضاقت به المعرفة إذ يقتصر عليها، منعه التتحقق مما بنيت عليه. فمن طلب العرفان للعرفان والمعرفة للمعرفة، والفلسفة للفلسفة تاه عن المقصد، والمقصد قد يكون اتصالاً بعالم الوجود والنور بتدرجاتها التي هي رفعة سمو معرفة النفس واستكمالاتها برتبها النورانية.

أما المنهج بهذا المعنى الأخير، فهو ينقسم عند "السهروردي" إلى ذوق وبرهان.. "ففي مقابل العلم التمثيلي الذي هو علم بالكلي المجرد أو بالمنطق (علم صوري)، لدينا علم حضوري اتصالي شهودي، وإشراق حضوري تشرق به النفس على الموضوع، وذلك بصفتها كائناً نورانياً، أي أنها تستحضره أمامها،

فكمـا أنـ الحـقـيـقـةـ الـكـوـنـيـةـ وـالـوـجـوـدـيـةـ وـالـدـيـنـيـةـ كـمـنـتـ فـيـ إـلـاسـلـامـ،ـ فـعـلـىـ حـكـمـةـ إـلـشـرـاقـ أـنـ تـقـومـ بـإـيـجادـ مـاـ أـسـمـاهـ شـيـخـنـاـ "ـالـسـهـرـوـرـدـيـ"ـ بـ"ـعـلـمـ الـحـقـيـقـةـ"ـ الـمـعـبـرـ عـنـهـ بـحـكـمـةـ إـلـشـرـاقـ،ـ سـاعـيـاـ لـتـضـمـنـ الـعـلـمـ مـاـ يـتـسـانـخـ مـعـ الـحـقـلـ الـذـيـ عـلـيـهـ يـقـيمـ بـنـاءـهـ،ـ وـمـنـهـ يـسـتـكـشـفـ إـشـرـاقـاتـهـ وـأـنـوارـهـ.

إـلـاـ أـنـ الـمـنـهـجـ «ـالـنـهـجـ»ـ يـقـتضـيـ أـدـوـاـتـاـ وـسـبـلـاـ بـحـثـيـةـ تـعـالـجـهـ وـتـكـشـفـ عـنـهـ.ـ وـهـنـاـ يـأـتـيـ الـحـدـيـثـ عـنـ تـقـسـيمـ الـعـلـمـ إـلـىـ حـقـيـقـةـ ثـابـتـةـ تـبـعـ الـمـعـلـومـ الثـابـتـ،ـ وـاعـتـبـارـيـةـ بـحـسـبـ الـمـوـاضـعـةـ وـالـفـرـضـيـةـ فـيـ الـلـحـوقـ بـالـثـوـابـتـ...ـ كـمـاـ يـأـتـيـ الـكـلـامـ عـنـ الـفـلـسـفـةـ وـالـمـيـتـافـيـزـيـقاـ لـاـ كـلـمـ مـسـتـقـلـ يـقـصـدـ لـذـاتـهـ،ـ بـلـ كـادـأـ مـعـرـفـةـ لـهـاـ وـظـيـفـةـ طـرـيقـيـةـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ الـمـقـصـدـ وـالـحـقـلـ كـمـاـ وـالـاشـتـغالـ فـيـهـ...ـ كـمـاـ تـأـتـيـ الـمـكـاـشـفـةـ وـالـمـشـاهـدـةـ وـالـاـرـتـيـاضـ وـالـعـرـفـانـ سـبـلـاـ مـتـقـدـمـةـ نـحـوـ ذـيـ الـمـقـدـمـةـ وـالـمـقـصـدـ الـأـسـنـىـ...ـ

فـمـنـ ضـاقـتـ بـهـ الـمـعـرـفـةـ إـذـ يـقـتـصـرـ عـلـيـهـ،ـ مـنـعـتـهـ التـحـقـقـ مـاـ بـنـيـتـ عـلـيـهـ.ـ فـمـنـ طـلـبـ الـعـرـفـانـ لـلـعـرـفـانـ وـالـمـعـرـفـةـ لـلـمـعـرـفـةـ،ـ وـالـفـلـسـفـةـ لـلـفـلـسـفـةـ تـاهـ عـنـ الـمـقـصـدـ،ـ وـالـمـقـصـدـ قـدـ يـكـونـ اـتـصـالـاـ بـعـالـمـ الـوـجـودـ وـالـنـورـ بـتـدـرـجـاتـهـ الـتـيـ هـيـ رـفـعـةـ سـمـوـ مـعـرـفـةـ النـفـسـ وـاستـكـمالـاتـهـ بـرـتبـهاـ الـنـورـانـيـةـ.

أـمـاـ الـمـنـهـجـ بـهـذـاـ الـمـعـنـىـ الـأـخـيـرـ،ـ فـهـوـ يـقـسـمـ عـنـدـ "ـالـسـهـرـوـرـدـيـ"ـ إـلـىـ ذـوقـ وـبـرهـانـ..ـ "ـفـيـ مـقـابـلـ الـعـلـمـ التـمـثـيلـيـ الـذـيـ هـوـ عـلـمـ بـالـكـلـيـ الـمـجـرـدـ أـوـ بـالـمـنـطـقـ (ـعـلـمـ صـورـيـ)،ـ لـدـيـنـاـ عـلـمـ حـضـورـيـ اـتـصـالـيـ شـهـوـدـيـ،ـ إـشـرـاقـ حـضـورـيـ تـشـرـقـ بـهـ النـفـسـ عـلـىـ الـمـوـضـوعـ،ـ وـذـلـكـ بـصـفـتـهاـ كـائـنـاـ نـورـانـيـاـ،ـ أـيـ أـنـهـاـ تـسـتـحـضـرـهـ أـمـاـهـاـ،ـ

وذلك بأن تستحضر نفسها. فظهورها هي نفسها نفسها هو حضور لهذا الحضور<sup>(21)</sup>. وحكمة الإشراق بنموذجها ونسقها الخاص يقول فيه: "ولم يحصل لي أولاً بالفکر، بل كان حصوله بأمر آخر.. ثم طلبت عليه الحجة، حتى لو قطعت النظر عن الحجة مثلاً، ما كان يشككني فيه مشكل<sup>(22)</sup>". ثم يكمل قائلاً: "وعلى هذا يبنتى قاعدة الشرق في النور..."<sup>(23)</sup>.

وبذلك يكون الأصل في منهجه هو "الأمر الآخر"، أي غير الفكر، وما ذاك إلا ما ابنت على قاعدة النور، وهي هنا الذوق والوجود والكشف والمشاهدة والعرفان والإشراق.

أما الحجة البرهانية، فهي الحكاية عن المشاهدة، والدليل على وجودها وإمكانها...

لذا فلو خالف الفرع الأصل، والحاكي المحكي عنه، فلا بد من ترك الفرع والتمسك بالحقيقة الفعلية التي عرفت بالمشاهدة، والمشاهدة المعنوية تحمل من اليقين ما لا يمكن أن تحمله حتى المشاهدات الحسية...

وهذا إنما يتوافر بالتجربة، وتخلية النفس من كل مانع عن الاتصال بمصدر كمالها، إذ إن المعرفة الذوقية الكشفية هي "معاينة المعاني وال مجردات كافة، لا بفكر ونظم دليل قياسي، أو نصب تعريف حدّي أو رسمي.. بل بأنوار إشراقية متالية متفاوتة بسلب النفس عن البدن.. وتبيّن معلقة تشاهد تجردها وتشاهد ما فوقها مع العناية الإلهية"<sup>(24)</sup>.

إن كل هذا يوصلنا للقول: إن حكمة الإشراق هي حكمة ذوقية بالأساس، وما جدلية علاقتها مع النسق البرهاني إلا من باب لحوق العارض بالجوهر على المستوى المعرفي.

كما أنها تحمل بعدها وظيفياً له علاقة بمنهج الدور المنوط بالإمام أو القطب، ذلك أن المعرفة هي حركة استكمال الفرد ومورد استخراج فعلية رقي رتبته الوجودية.

وهذا النحو من المعرفة، لا يستكمل نفسه برياسة الجماعة الا عبر البرهان. من هنا أطلق اسم الحجة على البرهان، وهو الاسم المناسب مع الإمام، لذلك كان كشف الحجة هو الأتم،... وكانت وحدة الذوق والبرهان على تمامها لا تتوافر إلا عند صاحب الخلافة الإلهية، قطب الأقطاب، والإنسان الكامل، أي الإمام الذي به تستكمل حركة النهج الاجتهادي للمعرفة، والذي لا تخلو منه أرض ولا زمان، كما عند "السهروردي" وبحسبه.

أما آليات هذا المنهج، فهي المعروفة بالمنطق الذي سعى "السهروردي" إلى إبداء الرأي فيه، وبالسير والسلوك الذي دعا إليه... وهكذا يستكمل المنهج الإشراقي نفسه وكماله.

وهنا نختم هذه اللمحـة بالقول: إن الكلام في المنهج ما زال يحتاج إلى كثير من الاستغال، فإنـ صح لنا أن نتحدث عن الإشكالية الكـبرـى أمام العـقلـ والـفـكرـ الإسلاميـ، فإـنـماـ هيـ مشـكلـةـ المـنهـجـ، وكـيفـ يـربـطـ بينـ الأـنسـاقـ علىـ أـرـضـيـةـ القـاسـمـ

الموحد، الذي منه ينطلق ليتامى الجدل والحوار الفلسفى أو الدينى أو الفكرى أو الحضارى، وبه توحد الأبعاد وتتقارب المتباعدات.

إن حكمة الإشراق هي بداية منطلق نحو بناء فلسفة الإسلام، فهل منها نطلق نحو استكمال الخطوة، ونعمل على بناء نموذج لفلسفة الدين. والدين اليوم ركن أي حوار أو تخاصم؟

وحكمة الإشراق موسوعة، ضمت برؤية خاصة، موقفاً من تجربة الأنبياء والحكماء، فهل تستفيد منها لقراءة جديدة لتاريخ الأنبياء؟ بل لقراءة علم اجتماع ديني نتلمس فيه موقعًا لمعرفة النظم الاجتماعية والسياسية والحضارية..

وحكمة الإشراق رؤية لكونية إسلامية شاملة، فهل يقدر المسلمين اليوم على أن يخرجوا، ولو على المستوى الفكري، من أفق القوميات والقطريات والشعوبيات نحو ما فيه رحابة وحدة الإنسان المتأله بإشرافات الإسلام المنبعث من روح كونية محمد بن عبد الله ﷺ؟

أسئلة ستبقى تشكل منافذ مسدودة لغaiات مشروعة تحتاج إلى البدء بالاستحقاق.

وختاماً: إذا كانت العادة قد جرت بعد تقديم توصيف وتبيان شرحي للفكرة أو لأفكار، أن تختتم بتوصية أو توصيات، فإننا نضع بين أيديكم الملاحظات والمقررات التالية:

أولاً: قد يستغرق الواحد منا مع قراءة العمل التراخي في التفاصيل الخاصة بموقعه وزمنياته وخصوصيته الحيثية فيه، ليصبح كأي حفرية أو طبقة جيولوجية من الأرض والمكان، نسخّرها لخدمة مشاريعنا، هذا إن أحسنا بناء العلاقة معها.. وهو الأمر الذي جمد العقل الإسلامي - العربي، بحيث بات التعاطي مع التراث حتى في نقداته يأخذ بعد التعرّض الاجتهادي. والاجتهاد في كل ما هو تراخي لا يكون إلا ضمن شروط خاصة منها:

أ - تجاوز المسائل والموضوعات بقيودها الخاصة نحو ترميزاتها ودلالة مقاصدتها.

ب - ضبط الإيقاع المركزي، أو ما يمكن تسميته ببؤرة المعنى لل موضوع المعالج.

ج - النزوع نحو جدلية الأسئلة والإجابات بين زمانينا بحيوية وروحية إحيائية.

د - تجاوز الأصر الفكري توصلًا لابتكارات الأفكار الاجتهادية من مصدر المعنى، مع الحفاظ على العلاقة التراكمية مع النتائج والمقررات المعرفية والعلمية التي تنساب مع القراءة التاريخية.

ويمكن أن نختصر كل تفاصيل هذه النقطة الأولى بضرورة تشكيل منهج معرفي إحيائي للتراث. وأؤكد هنا الفارق بين الإحياء السلفية، والإحياء على طريق رجالات الإشراق، أمثال "السهوراوي" والإمام "الخميني" (قده).

ثانياً: ان واحدة من أهم المشكلات التي يعاني منها فكرنا الفلسفى والمعرفي، هي فقدان المنهجية الواضحة في المعالجة، مع توافر متخدم للمسائل والمواضيعات. ولعل إشراقة "السهروردي" تحمل في طياتها ما يسمح بان تكون منطلقاً لمثل هذه المعالجة. من هنا فإني أقترح تشكيل لجنة خاصة تتبثق عن هذا المؤتمر لتعمل على وضع المخطط الأولي لمعالجة إشكالية المنهج في الفكر والفلسفة الإسلامية، انطلاقاً من منهجية الإشراق و موقفها من البرهانية الأرسطية.

ثالثاً: أن يعمل في الثانويات والجامعات على دراسة استكمالات حركة الفكر الفلسفى بمقطعه الثاني الذى يمثله شيخ الإشراق، بعد أن استنفذ المقطع الأول أغراضه عند الكلامية - الصوفية "للغزالى"، والإباعية الأرسطية "لابن رشد".

رابعاً: وهو اقتراح خاص نوجيهه للمستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في سوريا، ولرجلها الكبير الدكتور "آذرشب"، بإقامة ملتقي سنوي في مدينة حلب يستغرق فترة كافية لتناول موضوعات فلسفية محددة من حكمة الإشراق، بمشاركة باحثين من إيران، باعتبارها تمثل اليوم في حوزاتها العلمية، وجامعاتها، الحاضن العلمي لحكمة الإشراق، بل ولمدرسة الإشراق عموماً.

أملين للجميع التوفيق فيما تعقدون العزم الطيب عليه والسلام.

## المواهمش:

- (1) الشهري، شمس الدين محمد : "شرح حكمة الإشراق" تحقيق حسين ضيائي تربتي، مؤسسة مطالعات وتحقيق فرهنگی، تهران، 1372 هـ، ص 21.
- (2) م.ن، ص 21.
- (3) م.ن، ص 6.
- (4) السهروردي، شهاب الدين : "مجموعة مصنفات شيخ الإشراق" تصحيح و تقديم هنري كربن، مؤسسة مطالعات وتحقيق فرهنگی، تهران، 1372 هـ، ج 2، ص 10.
- (5) أبو ريان، محمد علي : "الإشراقية مدرسة أفلاطونية إسلامية" الكتاب التذكاري بشيخ الإشراق، القاهرة، 1974، ص 60.
- (6) انظر سيد حسين نصر في بحثه المقدم الى الكتاب التذكاري بشهاب الدين السهروردي .
- (7) أبو ريان، محمد علي: «الإسلامية مدرسة استقلاطونية..» مصدر سابق، ص 60
- (8) سورة الأنبياء: الآية، 22.
- (9) السهروردي : "حكمة الإشراق" م.س، ج 2، ص 11.
- (10) انظر كتاب التلويحات لشهاب الدين السهروردي .
- (11) أبو ريان، محمد علي : "أصول الفلسفة الإشراقية" دار الطلبة العرب، بيروت، د.ط، 1969، ص 175.
- (12) نصر، سيد حسين : "شيخ الإشراق" الكتاب التذكاري بشيخ الإشراق، القاهرة، 1974، ص 32.
- (13) حتفی، حسن : "حكمة الإشراق" الكتاب التذكاري بشيخ الإشراق، القاهرة، 1974، ص 179 .
- (14) سورة غافر: الآية، 78.
- (15) أبو ريان، محمد : "أصول..." م.س، ص 200.
- (16) سورة المائدۃ: الآية، 48.
- (17) نصر : "الإشراق..." م.س، ص 30.
- (18) م.ن، ص 30

- (19) للمزيد حول هذا الموضوع انظر ما كتب سيد حسين نصر في مقدمته للبحث المقدم للكتاب التذكاري .
- (20) السهروردي : " حكمة... " ج 2 ص 156 .
- (21) كوربان، هنري : " تاريخ الفلسفة الإسلامية " ترجمة حسن قبيسي و نصیر مروءة، دار عویدات، بيروت، ط 2، 1998، ص 311 .
- (22) السهروردي : " حكمة الإشراق " م.س، ص 10 .
- (23) م.ن، ص 10 .
- (24) مقدمة شرح حكمة الإشراق للشهرزوري ص 5 .

## **المصادر والمراجع:**

- الشهري، شمس الدين محمد: «شرح حكمة الاشراق» تحقيق حسين ضيائي تربتي، مؤسسة مطالعات وتحقيقـات فرهنـكي، تهران، 1372.
- السهروردي، شهاب الدين: «مجموعة مصنفات شيخ الاشراق»، تحقيق حسين ضيائي تربتي، مؤسسة مطالعات وتحقيقـات فرهنـكي، تهران، ج 1-2، 1372.
- كوربان، هنري: «تاريخ الفلسفة الإسلامية» ترجمة حسن قيسـي و نصـير مروـة، دار عـويدـات، بيـرـوت، طـ2، 1998، صـ 311.
- أبو ريان، محمد علي: «أصول الفلسفة الإشرافية» دار الطلبة العرب، بيـرـوت، 1969.
- أبو ريان، محمد علي: «الإشرافية مدرسة افلاطونية إسلامية - مناقشة قضية المصدر الإيراني» الكتاب التذكاري الخاص بالسهروردي، القاهرة، 1974.
- نصر، سيد حسين: «ثلاثة حكماء مسلمين» دار النهار، بيـرـوت، طـ2، 1986.
- نصر، سيد حسين: «شيخ الاشراق» الكتاب التذكاري الخاص بالسهروردي، القاهرة، 1974.